كلية الاداب / جامعة تكريت أ.د طيب صالح علاوي
قسم التاريخ / الماجستير/ الاسلامي
الفكر الاسلامي

علم التاريخ

يعد علم التاريخ جزءاً من التطور العام للحركة الفكرية الإسلامية خلال العصر العباسي . وصار للمعرفة التاريخية مكانةً كبيرةً لدى المسلمين مما ساهم في رفع مستوى الكتابة التاريخية.

وعلم التاريخ هو ذاكرة الأمم الحيّة ، وسجل مآثرها الخالدة ، وهو الصورة المعبرة لنشاطها وتجاربها عبر العصور . فالتاريخ علم يبحث وقائع الزمان وتعيين وقتها ومكانها.

وقد نال علم التاريخ المدح والثناء من العلامة ابن خلدون (ت 808هـ) إذ يقول عنه : **((أعلم أن فن التاريخ فن عزيز المذهب ، جم الفوائد شريف الغاية ، إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم ، والأنبياء في سيرهم ، والملوك في دولهم وسياستهم ، حتى تتم فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومهُ في أحوال الدين والدنيا))** .

لذلك فقد اهتم العرب المسلمون بعلم التاريخ . ويرجع ذلك إلى عدة أسباب ، منها ما هو ديني تشريعي يرتبط بتفسير القرآن الكريم ، والحديث النبوي الشريف ، وبعضها سياسي واجتماعي مرتبط بعناصر الدولة وتياراتها السياسية.

فقد وردت في القرآن الكريم آيات كثيرة تدعوا إلى التفكر والاتعاظ بعاقبة الأمم السالفة ، كما أن توالي الرسالات ، ومعرفة الأنبياء وأممهم أصبحت من الأمور المندوبة ، إضافة إلى أن التاريخ يخدم أغراض معرفة الناسخ والمنسوخ ، وهي من المسائل المهمة في التشريع الإسلامي ، إضافة إلى ما يقدمه التاريخ ورواياته من معلومات مفصلة عن السيرة النبوية.

لقد جاء القرآن بنظرة عالمية إلى التاريخ ، تتمثل في توالي النبوات . فكان لهذه النظرة أثرها في الالتفات إلى تاريخ الأنبياء والرسل وإلى الإسرائيليات.

وبفضل عناية الخلفاء الأمويين والعباسيين من بعدهم ، بالسوابق التاريخية والحث على حفظها ، كانت شروط كتابة التاريخ تتكامل مع جهود جمع الحديث النبوي الشريف ، فصدق الرواة وانتظام سلسلتهم والإحاطة بالظروف التاريخية (الذاتية والموضوعية) التي اكتنفت كل حديث ، مدفوعين بنزعة نقدية وضعت لامتحان الرواة والحوادث ، وفق ضوابط الجرح والتعديل ، لينسحب ذلك لاحقاً إلى المؤرخين والمتكلمين والفلاسفة كل حسب منهجه ومنطلقه.

وفي القرن الرابع للهجرة ، تقدم علم التاريخ وصار موضوعه شاملاً لا يقتصر فقط على الحياة السياسية وما فعله الملوك والأمراء , وإنما تناول مختلف جوانب الحياة ومنها العلوم العقلية والعقائد والأخلاق والأدب ، ولم يقتصر على تاريخ العرب المسلمين وإنما تناول أحوال كثير من الممم الأخرى ، فأصبح علماً جامعاً يعبر عن حكمة الماضي ووسيلة الاعتبار.

ففي بداية القرن الرابع للهجرة ، كانت وفاة المؤرخ الكبير محمد بن جرير الطبري (ت 310هـ) وكتابه (تاريخ الرسل والملوك) يمثل قمت ما وصلت إليه كتابة التاريخ عند العرب المسلمين عصرئذ .فنظرة إلى أسلوبه في الكتابة يتبن لنا تأثره بمدرسة أهل الحديث بصفته محدّثاً وفقهياً . واشتهر بطريقته الحولية في كتابة التاريخ والتي تأثر بها المؤرخون من بعده.

وتعتبر دراسة الفكر التاريخي في العراق والمشرق الإسلامي من الدراسات الإنسانية المهمة . لأنها تكشف عن الأسس والركائز التي أدت إلى نشوء مختلف أنواع حقول المعرفة الإنسانية ، ومنها علم التاريخ نفسه.

وفي القرن الرابع للهجرة يمكن أن نلاحظ أيضاً أن علم التاريخ أخذ اتجاهاً مستقلاً ، متأثراً بتطور العلوم الأخرى , وباتساع محاور الحضارة ومما ساعد على ذلك انتشار صناعة الورق وظهور حرفة الورّاقة ، فصارت بغداد مركزاً لمدرسة تاريخية شهيرة وازدادت الرحلات العلمية إليها.

وظهر خلال العصر البويهي إنتاج تاريخي قدّمه عدد من المؤرخين ذوي الميول المختلفة . فحفل ذلك العصر بالعديد من الأفكار والآراء والاتجاهات المتنوعة، حتى غدت مدرسة بغداد التاريخية ، هي المدرسة الأم وجمعت مؤرخي العراق وبلاد فارس.

ومن أهم مؤرخي القرن الرابع للهجرة المؤرخ الكبير علي بن الحسين بن علي المسعودي (ت 346هـ) الذي يرجع نسبه إلى الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود (رض) .

ولد المسعودي في إقليم بابل بالعراق ، كما ذكر هو نفسه وليس ببغداد كما يذهب إلى ذلك الكثير من المؤرخين الذين ترجموا لحياته . حتى عده ابن النديم رجلاً من أهل المغرب. ولم يأَت ذلك من فراغ ، فمنذ ولادته لم يفتر المسعودي عن السفر والترحال **((وقطع القفار ، تارة على متن البحر ، وتارة على ظهر البر ، مستعلمين بدائع الأمم بالمشاهدة ، عارضين خواص الاقاليم بالمُعاينة ، كقطعنا بلاد السند والزنج والصنف والصين والزابج ، وتقحمنا الشرق والغرب ، فتارةً بأقصى خُراسان ، وتارة بوسائط إرمينية وأذربيجان والران والبيلقان ، وطوراً بالعراق ، وطوراً بالشام))** حتى أستقر أخيراً بمصر ونزل الفسفاط وتوفيَّ فيها في سنة 346 هـ. وقد جمع المسعودي إلى جانب الرغبة الجامحة في السفر نفساً لا تمل للاطلاع والتسجيل ومحاولة معرفة كل شيء . فهو في تواريخه يتحدث عن الملل والنحل وألوان الأفكار في المجتمعات التي زارها.

ويسرد لنا المسعودي في مقدمة كتابه (مروج الذهب) مائة مصدر من مصادره التاريخية تمثل أبرز ما أنتجه الفكر التاريخي الإسلامي في أيامه ، وهو يثني على تاريخ أبي جعفر محمد بن جرير الطبري من بين كل المؤلفات ويصفه بالزاهي على المؤلفات والزائد على الكتب.

ويعد كتاب (مروج الذهب) من مؤلفات المسعودي المهمة والكبيرة . وجاءت شهرة المسعودي كمؤرخ من خلال غلبة الطابع التاريخي على مؤلفاته أكثر من الطابع الجغرافي، وربما جاء ذلك نتيجة لتأثره بالمؤرخ الكبير الطبري (ت 310 هـ) .

عرف عن عصر المسعودي انتشار النحل المذهبية والأحزاب السياسية فيه ، مع كل هذا لم نجد له أثراً في كتابته التاريخية مما أبعده عن المغالات والتعصب، ونجد في مؤلفاته الحيادية والعلمية المطلوبة من المؤرخ بعيداً عن انتمائه المذهبي.

ويبدوا ان ذلك جاء نتيجة لتجوال المسعودي الدائم واطلاعه على عادات الشعوب المختلفة وعقائدها مما جعله يتقبل الآراء المخالفة له ويحترمها بعيداً عن التعصب لمذهب معين، وهذا المنهج ينسجم مع العصر البويهي الذي عاش فيه السنوات الأخيرة من حياته .

والمؤرخ الكبير الثاني الذي عاش في بدايات العصر البويهي هو أبو الفرج الاصفهاني علي بن الحسين بن محمد بن أحمد القرشي الأموي (ت 356هـ). الذي غلبت عليه رواية الاخبار والآداب وكان عالماً بأيام الناس والسير.

صنف أبو الفرج الاصفهاني كتباً كثيرة منها (الأغاني) و (مقاتل الطالبين) و (الديارات) و (نسب بني عبد شمس) و (أيام العرب) وغيرها من الكتب.

والملاحظ على مؤرخي واخباري اصفهان ، أنهم كانوا موسوعيين في علومهم . ومن أبرزهم أبي الفرج الاصفهاني ، حيث كان نسابةً واخبارياً ومؤرخاً ، يحفظ الشعر والروايات والاخبار والآثار والأحاديث المسندة. إضافةً إلى أنه كان شاعراً ، له من الشعر الكثير.

حضي أبو الفرج الاصفهاني بدعم ومرافقة الوزير البويهي أبو محمد بن الحسن المهلبي (ت 353 هـ / 964 م) . وقد أشتهر الوزير المهلبي بتقريبه للعلماء والادباء والشعراء ومنهم مؤرخنا أبو الفرج الاصفهاني .

ومن أشهر المؤرخين الذين اختصوا بالدولة البويهية هو : إبراهيم بن هلال ابن زهرون أبو إسحاق الحراني الصابي (ت 384 هـ) . يقول عنه ابن النديم انه مترسل بليغ ، وشاعر ، عالم بالهندسة ، له من الكتب مراسلات الشريف الرضي أبي الحسن محمد بن الحسين الموسوي ، وكتاب دولة بني بويه وأخبار الديلم وابتداء أمرهم ويعرف بالتاجي أو (العضدي) .

وكان أبو إسحاق الصابي قد خدم الخلفاء العباسيين وامراء بني بويه ووزرائهم وتقلد أعمالاً جليله . وقد عرض عليه عز الدولة بختيار بن معز الدولة الوزارة اذا أسلم فأمتنع . وعندما ورد عضد الدولة بغداد سنة 367 هـ / 977 م ، نقم عليه بسبب بعض كتاباته عن الخليفة وعز الدولة فحبسه ، وأمره عضد الدولة بتأليف كتابٍ في تاريخ البويهيين مقابل اطلاق سراحه . فشرع في محبسه بكتابة تاريخ (التاجي) في اخبار بني بويه (نسبة إلى تاج الملة) وهو أحد ألقاب عضد الدولة البويهي . وقيل إن بعض أصدقائه دخل عليه الحبس وهو منكب بتأليف كتابه (التاجي) فسأله عما يعمله فقال : **((أباطيَلٌ أُنمقُها وأكاذيب ألفقها))** . فخرج الرجل وذكر ذلك لعضد الدولة فأمر بإلقائه تحت أرجل الفيلة . ولولا شفاعة بعض حاشية عضد الدولة لقتله شر قتله . وبقي في حبسه إلى ان أطلقه صمصام الدولة بن عضد الدولة.
ولا يمكننا قبول قول أبو إسحاق الصابي ((أباطيل أنمقها وأكاذيب ألفقها))
على علاته ، فأكثر الذي بين أيدينا من أخبار (التاجي) صحيحه . وإن كان الصابي لا يطمئن إلى نسب بني بويه اذ أرجعهم إلى ملوك آل ساسان. لكن صحة هذا النسب أكدها ابن الأثير.

ولأبي إسحاق الصابي أثر تاريخي أخر لعله أكثر أهمية من كتاب (التاجي) وهي الرسائل والمنشورات الرسمية التي كتبها على لسان ولاة الأمر في عصره من الخلفاء والأمراء البويهيين ، بحكم وظيفته في ديوان الرسائل . وفيها وصف الوقائع الحربية ودخائل السياسة والخلافات والمفاوضات وصور العهود والتقاليد الرسمية للولاة والعمال والقضاة. وهي وثائق تاريخية بالغة الأهمية لتلك الحقبة.

ومن المؤرخين الكبار ممن أختص بالدولة البويهية : أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب مسكويه الملقب الخازن (ت 421 هـ) . اتصل في ريعان شبابه بابن العميد وأختص به . ثم تنقلت به الاحوال في خدمة بني بويه وصار من خاصة بهاء الدولة (379 – 403 هـ / 989 – 1012 م) وعظم شأنه وعلت مكانته.

كان مسكويه مجوسياً وأسلم ويبدوا أن ذلك كان له أثراً في كتابته ، حيث كتب في علوم الأوائل والفلسفة وتصانيف كثيرة في مختلف العلوم.

إلا أن مسكويه اشتهر بتاريخه (تجارب الأمم) حيث تناول فيه أحوال الكثير من الأمم ، ويعبر عن حكمة الماضي ووسيلة للاعتبار والمقارنة فسماه (تجارب الأمم) . وقد ختمه بسيرة عضد الدولة (ت 372 هـ / 982 م) وانتهت أخباره بسنة 369 هـ / 979 م.

وبنظرة فاحصة إلى كتاب تجارب الأمم يتضح لنا ان التاريخ برأي مسكويه يشتمل على أحداث يمكن للإنسان ان يستفيد منها ، فإذا عرف الإنسان تلك الأحداث وقيمتها التجريبية ثم اتخذها إماماً لنفسه يقتدي به فهذا يجعله يحذر مما ابتليّ به غيره ويتمسك بما سعدوا به. فمسكويه ، خلافاً لسلفه الشهير الطبري ، عزم على ان يصنف تاريخه كبناء عضوي يكون الفكر الأساسي المحدد عنصراً بناءً في الكتاب بأسره . فجاء كتاب (تجارب الأمم) عمل فكري ناضج نتج عن ذهن استدلالي بناء يسوده انطباع سامٍ عن غرض المؤرخ وواجبه.

وكان من أسباب ثقافة مسكويه ، التاريخية ، هو اتصاله بكبار رجالات الدولة البويهية والتي اختص بالكثير من ملوكها ووزرائها. وهو يقول في هذا الصدد : **((وان أكثر ما أحكيه بعد هذه السنة (سنة 340 هـ / 951 م) فهو مشاهدة وعيان أو خبر محصل يجري عندي خبره مجرى ما عاينته وذلك ان مثل الأستاذ الرئيس أبي الفضل محمد بن الحسين بن العميد (رضي الله عنه) خبرني عن هذه الواقعة وغيرها بما دبره واتفق له فيها فلم يكن إخباره لي دون مشاهدتي في الثقة به والسكون إلى صدقة))** فمسكويه بذلك يكون شاهد عيان ومؤرخ يوثق للنصف الثاني من القرن الرابع للهجرة وخاصة ما يتعلق بالدولة البويهية .

ويلاحظ على كتاب (تجارب الأمم) انه يركز على اخبار العراق ويسهب في ذكر التفاصيل والوثائق والكتب الرسمية والملامح الاقتصادية. ويلاحظ أيضاً التزامه بالطريقة الحولية في كتابة التاريخ والتي تعتبر إحدى ركائز المنهج التاريخي عند الطبري (ت 310 هـ) فقد اتبعها مسكويه في (تجارب الأمم) .

ومن مؤرخي هذا العصر أيضاً : أحمد بن عبد الله بن أحمد أبو نعيم الاصبهاني (ت 430 هـ) . وقد ألف في التاريخ كتاب (حلية الأولياء وطبقات الأصفياء) . وفيه تراجم الصحابة والتابعين وكبار رجال الإسلام خاصة المتصوفة . وقد اختصره ابن الجوزي في كتاب صفوة الصفوة. ومن كتب أبو نعيم كتاب (تاريخ اصبهان) أو (اخبار اصبهان) ، والف كتباً كثيرة تربو على الثلاثين كتاباً.

وقد أثنى السخاوي (ت 902 هـ) على (تاريخ اصبهان) ويعتبره أجمع التواريخ لتي كتبت عن هذه المدينة.

ومن مشاهير المؤرخين في القرن الخامس للهجرة هو : أبو الحسن هلال بن المحسن بن إبراهيم الصابي ، ولد سنة 359 هـ . وتوفي سنة 448 هـ . وكان من كبار الكتاب.

يرجع الفضل في تعلم هلال الصابي فنون الكتابة واصول البلاغة إلى جده أبي إسحاق إبراهيم الصابي . عمل الصابي في دار الخلافة . وتيسر له وهو في ذلك المكان ان يقف على شؤون الدولة ورسومها وأسرارها ومجالسها وعرف أحوال الخلفاء ، فوقف على عاداتهم وأخلاقهم ورسومهم في الملبس والمأكل والمشرب ،. فصنف كتابه (رسوم دار الخلافة) حينما كان يعمل في ديوان الإنشاء.

ومن كتب أبو الحسن هلال الصابي المهمة في مجال التاريخ كتابه ((**التاريخ**)) ويقع في أربعين مجلداً. وكتاب ((**الأمثال والأعيان ومنتدى العواطف والإحسان**)) . وكتاب ((**تحفة الامراء في تاريخ الوزراء**)).

ومن أشهر مؤرخي العصر البويهي بحق الخطيب البغدادي : أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت (ت 463 هـ) صاحب التصانيف الكثيرة . وكان الخطيب يهتم بعلم الرجال وتراجمهم ورجال الحديث والتاريخ . وأثنى عليه المؤرخون وقالوا : ((**لو لم يكن له سوى التاريخ لكفاه**)).

وقد شمل تاريخ الخطيب (تاريخ بغداد) التاريخ العلمي والثقافي لمدينة بغداد ، كما أنه يعد واحداً من كتب التراجم المهمة لرجال الحديث.

يعتبر علم الرجال الذي وضع لخدمة الحديث النبوي الشريف والذب الف فيه الخطيب (تاريخ بغداد) فرعاً مهماً من فروع التاريخ . حيث تناول الخطيب خطط بغداد وتراجم الخلفاء والامراء والوزراء والقادة والقضاة وغيرهم . فلذلك يمكن اعتباره من كتب التاريخ العام ، مع شهرته في علم الرجال.

لقد حظي علم التاريخ خلال العصر البويهي باهتمام واسع ، حيث استمرت العناية بتاريخ السير والفتوحات والأنساب والطبقات . بالإضافة إلى تاريخ الأمم الأخرى وأخبارها . وظهر اتجاه جديد في كتابة التاريخ وهو الاهتمام بتاريخ القوى المتغلبة ضمن بلاد الإسلام.

وكان الغالب على علم التاريخ في العصر البويهي الاهتمام بعلم الرجال لخدمة الحديث كما أسلفنا القول . إلا ان علم الأنساب وهو فرع مهم من علم التاريخ لم يلق عناية كبيرة من المؤرخين سوى الاهتمام بأنساب الامراء المتغلبين.